الباب الخامس

شوق الإنسان فى وطنياته

يحلو للكثيرين من قراء الشعر ومتابعى آثار ناظميه ، أن يقيموا مقارنة بين وطنية الشاعرين شوقى وحافظ ، وهذا أمر إذا بدا فى ظاهره شيئاً ميسوراً إلا أن تناوله يتطلب التعمق والدراسة التى تتيح الحكم الصحيح ..

وكما سبق وذكرنا فى مطلع حديثنا ، أن غايتنا من هذه الدراسة ، تنصرف إلى الحديث عن شوقى الشاعر الإنسان ، ولكنى لا أرى بأساً ، تحقيقا لرغبة من ذكرت ، أن أسلك هذا المسلك فى شىء من الإيجاز .

عرفنا مما سردناه ، كيف أن عروق شوقى قد توزعت فى مختلف الأجناس التركية والشركسية واليونانية ، كما أن حافظ إبراهيم تتقاسمه جنسيتان ، فأبوه مصرى صميم ولد وعاش فى ديروط وقد أنجب حافظاً هنالك فى (ذهبية) ترسو إلى جانب النيل ، وقد اشتهر لقبه بشاعر النيل ، أما أمه فهى (هانم بنت أحمد البورصة لى) من أسرة تركية الأصل .

وليس مكان الولادة والانتماء إلى بلد بضرورة فى أن يكون هذا المنتمى وطنياً .

ولدينا فى حشايا التاريخ أمثلة عديدة نضربها للبرهان على ما ذكرنا ، فنابليون من أصل إيطالى فقد ولد فى بلدة أجاكسو بجزيرة كورسيكا الإيطالية التى احتلتها فرنسا بعد سنوات معدودة من مولد نابليون ، وهتلر كان نمساوياً ثم نزح إلى ألمانيا ، كما أن صلاح الدين الأيوبى كان كردياً عاش أبوه فترة فى سوريا ثم نزح به إلى مصر وعاش بها حتى ولى أمرها ، وكأن القدر قد أعده ليدفع عن مصر وغيرها من الشرق العربى شرور التتار والصليبيين .

كذلك كان الأمر بالنسبة لكاترين الأولى قيصرة روسيا ، فقد كانت ألمانية ، كما أن العائلة الإنجليزية المالكة من أصول ألمانية ومن هانوفر ومن العائلة الألمانية المالكة .

نخلص من هذا إلى أنه لا دخل فى مكان الميلاد ، أو الانتماء الأصلى لبلد من البلدان ، فى تكوين وطنية الشاعر أو وطنية أى إنسان . أما بالنسبة لوطنية شوقى ووطنية حافظ فى نظميهما ، فإن هناك أسباباً ودوافع تقرب بينهما حيناً وتباعد بينهما حيناً .

ذلك أن شوقى نشأ فى بيئة تركية أو أرستقراطية خالصة ، وتربى جدوده كما تربى هو فى القصور ، فأصبح الاعتزاز بهذا النسب والحسب ضرورة طبيعية أو ضريبة أدبية .

أما حافظ فقد نشأ فى بيئة نصفها مصرى أصيل من ناحية الأب ، ونصفها الآخر تركى متواضع من ناحية الأم التى كانت تنتمى من ناحية أبيها (البورصة لى) إلى أصل تركى ديموقراطى .

فإذا ما هم شوقى – وهذا ما كان يتهمه به شانئوه – بالدفاع عن تركيا

وسلطان تركيا وخلافة العثمانيين ، قالوا إنما هو يفاخر بحسبه ونسبه ، فى حين أنه كان يدافع عن الخلافة بوصفها نصيرة الإسلام ، وحامية حماه ، وأن فى إضعافها إضعاف للإسلام ، وهذا ماكان يجرى ، إلى جانب ماكان يأتيه السلاطين مما يطول الحديث حوله ولا يتطلبه الموقف .

أما حافظ وإن كان يشترك مع شوقى فى هذه المشاعر التى يمليها التمسك بعزة الإسلام والدفاع عن ركنه ، فإنك كنت تلمس وهو يتحدث عن الخلافة أنه يتحدث حديث الحادب عليها والمشفق من أن تضعف فيضعف الإسلام ، ولكن بحرارة لا وقدة فيها ، كتلك التى كانت تظهر وتبين عندما كان شوقى ينبرى للدفاع عنها فى بيان قوى ولسان فصيح علوى .

كذلك فإن شوقى يختلف عن حافظ فى وطنيته التى كانت بحكم تنقلاته ورحلاته ، تتعدى الحدود ، وتقف إلى جانب كل شعب مظلوم مقهور مغلوب على أمره ، فى حين ركز حافظ حماسه وثورته على مصر وشعب وادى النيل . ويلمس قارئوه فى وطنياته ناراً تتأرجح وثورة تشتعل ، ولا عجب فى ذلك ، فقد اكتوى بنار المستعمر البريطانى الذى ما زال به حتى حمل الحاكمين على إعفائه من عمله كضابط فى الجيش ، أما شوقى فإن نفس المستعمر لم يلحقه إلا بأذى يسير ، حيث أمر بنفيه خارج مصر ، حيث اختار الأندلس مقاماً ، وهى جنة قال هو نفسه فيها :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وفى هذا البيت وحده ، البرهان على تقديسه لوطنه مصر وتفانيه فى حبها .

وحافظ يقول فى مناسبة نجاة سعد زغلول من الاعتداء عليه :

الشعب يدعو الله يا زغلول أن يستقل على يديك النيل
أيموت (سعد) قبل أن نحيا به خطب على أبناء مصر جليل

ووطنيات حافظ عديدة ووفيرة ، تلمس فيها الوفاء الأصيل والحب الخالص فى ألفاظ بريئة كأنه الطفل الذى يتزع إلى حنان أبويه ، فى حين كان شوقى يبث فى وطنياته ، مع حرارة الوفاء ، الحكمة والنصح والتكريم ، كأب يحنو على ولده وفلذة كبده .

الشاعران فى إيجاز ، وطنيان صميمان ، والمقارنة بين نظميهما فى الوطنيات ، أشبه بالمقارنة بين حدى المقص .

فإذا قلت إن شوقى حسبه أن يقول :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

فكيف ننسى لحافظ قوله فى مصر وعلى لسانها :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الـ ـشرق ودراته قلائد عقدى
كم بغت دولة على وجارت ثم زالت وتلك عقبى التعدى
إننى حرة كسرت قيودى رغم رقبى العدا وقطعت قدى

* * *

تعالوا ننظر إلى شعر شوقى وهو يحلل به الأحداث الوطنية ففى عام ١٩١٩ ثارت البلاد فى طلب استقلالها . وغادر مصر إلى باريس أعضاء من الوفد

المصرى ، لعرض قضية البلاد على مؤتمر السلام العام فى (فرساى) . وكان سعد قد تلقى وهو فى باريس دعوة من لورد (ملنر) وزير المستعمرات البريطانى ، ليتفق معه على مركز البلاد وتحديد علاقة إنجلترا بها . وانتهت المحادثات بينهما إلى مشروع قدمه لورد ملنر فاتفق سعد مع زملائه على ضرورة عرضه على البلاد ، وانتدب الوفد أربعة من أعضائه لهذه المهمة ، وتباينت الآراء حول المشروع مما حمل شوقى على أن ينظم فيه :

ما بال قومى اختلفوا بينهم ... فى مدحة المشروع أو ثلبه
كأنهم أسرى أحاديثهم ... فى لين القيد وفى صلبه
يا قوم هذا زمن قد رمى ... بالقيد واستكبر عن سحبه
من يخلع النير يعش برهة ... فى أثر النير وفى ندبه

إلى أن يقول ناصحًا :

قد صارت الحال إلى جدها ... وانتبه الغافل من لعبه
الليث والعالم من شرقه ... فى هيبة الليث وفى غربه
قضى بأن نبنى على نابه ... ملك بنينا وعلى خلبه
ونبلغ المجد على عينه ... وندخل العصر إلى جنبه

* * *

وعندما قامت أحداث دنشواى فى عهد كرومر الذى حكم مصر كأنه السجان والحاكم بأمره ، حتى لقد قضت آثار مشانق دنشواى ، بنقله من مصر ، حيث قام شوقى بنظم قصيدة فى هذه المناسبة جاء فيها :

يا مالكاً رق الرقاب ببأسه هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العياء رحيلا
أوسعتنا يوم الودائع إهانة أدب لعمرك لا يصيب مثيلا
أنذرتنا · رفا يدوم وذلة تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة ؟ لا يملك التغيير والتبديلا
فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين العالمين قبيلا

• • •

وفى حنينه لمصر ، عارض سينية البحترى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن ندى كل جبس[1]

بسينية شوقية تشى بشدة تعلقه ببلدة مصر واعتزازه بالانتساب إليها ووصف معانيها فى أبيات ذكر كثير من النقاد أنها تفوق سينية البحترى ، برغم تواضعه فى تقديمها حيث يقول من نثره فى مقدمتها :

كنت كلما وقفت بحجر ، أو أطفت بأثر ، تمثلت بأبياتها : واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها وأنشدت فيما بينى وبين نفسى :

وعظ البحترى إيوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروى ، وأعالجه على هذا الوزن ، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة . وأتممت هذه الكلمة الريضة . وأنا أعرضها على القراء راجياً أن سيلحظونها بعين الرضاء ، ويسحبون على عيوبها ذيل الإغضاء .

(١) جبس : أى جبان .

اختلاف النهار والليل ينسى ... اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصفا لى ملاوة[1] من شباب ... صورت من مصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب ومرت ... سنة حلوة ولذة خلس
وسلا مصر ، هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحه الزمان المؤسى
أحرام على بلابله الدوح ... حلال للطير من كل جنس
شهد الله لم يغب عن جفونى ... شخصه ساعة ولم يخل حسى

إلى أن يقول متشوقاً :

وكأن الأهرام ميزان فرعون ... بيوم على الجبابر نحس
روعة فى الضحى ملاعب جن ... حين يغشى الدجى حماها ويغسى
و (رهين الرمال)[2] أفطس إلا ... أنه صنع جنّة غير فطس
تتجلى حقيقة الناس فيه ... سبُع الخلق فى أساريره أنسى
لعب الدهر فى ثراه صبيًّا ... والليالى كواعباً غير عنس
فأصابت به الممالك (كسرى) ... و (هرقلا) و (العبقرى الفرنسى)
يا فؤادى لكل أمر قرار ... فيه يبدو وينجلى بعد لبس

* * *

ومن الحنين نسمعه يقول :

سويجع[3] النيل رفقاً بالسويداء ... فما تطيق أنين المفرد النائى

---

(١) ملاوة : يعنى البرهة .
(٢) ورهين الرمال : يعنى أبو الهول .
(٣) سويجع : تصغير ساجع .

لله واد كما يهوى الهوى عجب ... تركت كل خلى فيه ذا داء
وأنت فى الأسر تشكو ما تكابده ... لصخرة من بنى الأعجام صماء
أمسى وأصبح فى نجواك فى كلف ... حتى ليعشق نطقى فيك إصغائى
مؤيداً بك فى حلى ومرتحلى ... وما هما غير إصباحى وإمسائى

* * *